

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

إثبات صفة المكر
لله تعالى على
ما يليق بجلاله
وكماله

مناسبة هذه الآية مُرتبط بمكر كُفَّار بني إسرائيل الَّذِينَ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمْ الْكُفْرَ وَهُمْؤَا بقتله، وجمعوا جموعَهُمْ لِلْفَتْكِ بِهِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ، فلم ينجحوا فيما دبَّروا⁽¹⁾. أو: لما ذكر الله تعالى أوليائه أَتَبِعَهُمْ أَعْدَاءَهُ⁽²⁾ على طريقة القرآن في ذكر المتقابلات، "وَسَمِّيَ مَكْرًا مِنْ بَابِ الْمَشَاكِلَةِ، ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾، أي أَقْوَاهُمْ مَكْرًا، بحيث جعل تدميرهم في تدميرهم".

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿وَمَكَرُوا﴾ و﴿وَمَكَرَ﴾: من المكر وهو السُّتْرُ، يُقَالُ: مَكَرَ اللَّيْلُ: أَي أَظْلَمَ، وَسَتَرَ بظلمته ما فيه، واشتقاقه من المَكْر، وهو شجر ملْتَفٌ، ينتج عن التفافه ظلمة، تخيلوا فيه أَنَّ المَكْرَ يَلْتَفُّ بِالْمَكُورِ بِهِ، ويشتمل عليه، ثم أُطْلِقَ المَكْرُ عَلَى الخُبْثِ والخِدَاعِ، ومعناه: اخْتِرَانٌ رَقِيقٌ أَوْ لَطِيفٌ، ومنه المكر المعروف، وعَرَّفَهُ الخليل بأنه احتيال في خُفْيَةٍ، وابن سيده بأنه خديعة واحتيال، والرَّاغِبُ بأنه صَرَفَ الْغَيْرَ عَمَّا يَقْصِدُهُ بحيلة.

والأَوْفَقُ نَظْرًا إِلَى الاستعمالات الحسيَّة، أَنَّ المَكْرَ: تَدْبِيرٌ يُخْفَى وَيُخْتَرَنُ لِأَحْدَاثٍ أَوْ أُمُورٍ، لتقع في المستقبل على نحو ما، فاختران هذه الخطوات المَعْدَّةُ للمستقبل، هو المَكْر⁽³⁾، ومعنى خَيْرُ الْمَكِرِينَ: أَقْوَاهُمْ مَكْرًا، وَأَنْفَذُهُمْ كَيْدًا، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى إِصْصَالِ الْأَثَرِ مِنْ حَيْثُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/442، الرَّاظِي، مفاتيح الغيب: 8/231، وحجازي، التفسير الواضح: 1/236.

(2) البقاعي، دلالة البرهان القويم: 3/1043.

(3) الرَّاغِبُ، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكر).

لَا يَحْتَسِبُ⁽¹⁾، وَمَكَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّهُمْ وَكَلُوا بِهِ مِنْ يَقْتُلُهُ غِيلَةً، وَمَكَرَ اللَّهُ: أَنْ رَفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى شَبَهَهُ عَلَى مَنْ أَرَادَ اغْتِيَالَهُ حَتَّى قَتَلَ بَدَلًا عَنْهُ، وَظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ⁽²⁾، وَمِنْ اللَّطَائِفِ مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ الْجَنِيدَ، فَقَالَ: كَيْفَ رَضِيَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ الْمَكْرَ، وَقَدْ عَابَ بِهِ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، وَلَكِنْ أَنَشْدُنِي فَلَانَ الظُّهْرَانِيَّ:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي *** فَتَفَعَّلَهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكَ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ⁽³⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

لَقَدْ مَكَرَ الْكَافِرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ سَعَوْا فِي قَتْلِ عِيسَى ﷺ، فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ فَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَأَلْقَى شَبَهَ عِيسَى ﷺ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ، فَنَجَّاهُ مِنْ مَكْرِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا أَشَدَّ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَخْفَى مِنْ مَكْرِهِ تَعَالَى بِأَعْدَائِهِ⁽⁴⁾، "فَقَدْ طَفِقُوا يَكِيدُونَ لَهُ وَيَمَكُرُونَ، فِي تَلْفِيقِ شَيْءٍ يَحَارِبُونَ بِهِ دَعْوَتَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ أَبْطَلَ كَيْدَهُمْ، فَلَمْ يَنْجَحُوا، وَاللَّهُ أَحْكَمُ الْمُدَبِّرِينَ وَأَقْوَاهُمْ"⁽⁵⁾.

مَكَرَ اللَّهُ بِكَفَرَةِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ،
رَدَّ يَكِيدِهِمْ فِي
نُحُورِهِمْ

❁ الْإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

تَنَوُّعُ الْأَسَالِيبِ فِي كَشْفِ مَكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

هُوَ عَطَفٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: 52]، وَهُمْ كَفَّارٌ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَحَسَّ مِنْهُمْ الْكُفْرَ وَالْعُدْرَ وَالْمَكَرَ⁽⁶⁾.

دَلَالَةُ الْعَطْفِ
وَالْإِضْمَارِ فِي
قَوْلِهِ: (وَمَكَرُوا)

(1) أَبُو الشَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 2/43، وَالطَّبِيبُ، فَتُوحُ الْغَيْبِ: 4/118.

(2) الْأَبْيَارِيُّ، الْمَوْسُوعَةُ الْقُرْآنِيَّةُ: 9/229.

(3) أَبُو حَيَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ فِي التَّفْسِيرِ: 3/175.

(4) الْحَاشَعِيُّ، التُّكْتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 179، الرَّازِيُّ، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 8/238، جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، لِلخَنْصَرِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ص: 75.

(5) الْفَطَّانُ، تَبْسِيرُ التَّفْسِيرِ: 1/197.

(6) الطَّبِيبُ، فَتُوحُ الْغَيْبِ: 4/118، ابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 3/256.

وَأَمَّا ضَمِيرٌ ﴿وَمَكْرُؤٌ﴾ فَعَائِدٌ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ ﴿مِنْهُمْ﴾ [آل عمران: 52]، وَهُمْ الْيَهُودُ. وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَعَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: 14] (1).

دَوْرُ الشَّكْلَةِ فِي
تَوْسِيعِ الْمَعْنَى

مَكَرُ الْيَهُودِ هُوَ تَدْبِيرُهُمْ لِأَخْذِ الْمَسِيحِ، وَسَعْيُهُمْ لَدَى وَلَاةِ الْأُمُورِ لِيُمَكِّنُوهُمْ مِنْ قَتْلِهِ. وَمَكَرُ اللَّهِ بِهِمْ هُوَ تَمَثِيلٌ لِإِبْطَالِ اللَّهِ تَعَالَى مَسَاعِيَهُمْ فِي حَالِ ظَنِّهِمْ أَنَّ قَدْ نَجَحَتْ مَسَاعِيَهُمْ، وَهُوَ هُنَا مُشَاكَلَةٌ (2)، كَمَا جَازَ إِطْلَاقُ الْمَكَرِ عَلَى فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مُشَاكَلَةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] (3).

ترتيب المكر على الشرط:

علّة مكر الله
تعالى مجازاتهم
على مكرهم

ترتيب المكر على الشرط في الآيتين السابقتين يُفهم منه أَنَّهُمْ لَمَّا عَلِمُوا إِحْسَاسَهُ بِمَكْرِهِمْ خَافُوا غَائِلَتَهُ فَأَعْمَلُوا الْحِيلَةَ فِي قَتْلِهِ، ثُمَّ إِنَّ مَكْرَهُمْ تَلَاشَى وَاضْمَحَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، أَي: الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةً وَعِلْمًا (4). فَقَوْلُهُ ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: "مَجَازَاتُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ سَمَّى ذَلِكَ مَكْرًا؛ لِأَنَّ الْمَجَازَاةَ لَهُمْ نَاشِئَةٌ عَنِ الْمَكْرِ" (5).

بلغة الجناس، وردّ الفاصلة على الصدر:

الجناس
والردّ أكسبا
التعبير جمالاً
وحسنًا، وأحدثا
ميلًا للنفس
نحو التشوّق
والإصغاء

وقد وَقَعَ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ جِنَاسٌ اشْتِقَاقِيٌّ، فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ لَفْظِي ﴿وَمَكْرُؤٌ﴾ وَ﴿الْمَكْرِينِ﴾، فَهُمْ أَرَادُوا قَتْلَهُ فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَاللَّهُ أَقْوَى مَكْرًا بِحَيْثُ جَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ. كَمَا وَقَعَ فِيهِ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ رَدٌّ لِلْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ؛ إِذْ وَافَقَتْ كَلِمَةُ ﴿الْمَكْرِينِ﴾ وَهِيَ آخِرُ كَلِمَةٍ فِي الْكَلَامِ أَوَّلَ كَلِمَةٍ فِي صَدْرِهِ وَهِيَ ﴿وَمَكْرُؤٌ﴾. وَهَذَانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/257.

(2) للشَّكْلَةُ: ذَكَرَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ غَيْرِهِ لَوْقُوعِهِ فِي صَحْبَتِهِ.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/257.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/418.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 2/495.

أكسبا التعبير جمالاً وحسناً، وأحدثا ميلاً للنفس نحو التشوُّق والإصغاء إلى المكرين، وطبيعتهما.

لفظ (المكر) بين الحقيقة، والمجاز للرسول:

قال القزويني: "تجوّز بلفظ المكر عن عقوبته؛ لأنه سببها.

قيل: ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة؛ لأن المكر هو التدبير فيما يضرُّ الخصم وهذا مُحَقَّق من الله تعالى باستدراجه إيّاهم بنعمه مع ما أعدَّ لهم من نقمة"⁽¹⁾. ففي لفظ (المكر) مجازٌ مُرسل، ذَكَرَ السَّبَبَ (المكر) وأراد ما يتسبَّب عنه من (العقوبة)، فالعلاقة سَبَبِيَّةٌ⁽²⁾. ويحتمل أن يكون مَكْرَ الله حقيقة؛ لأنَّ المكر هو التدبير فيما يضرُّ الحَصَم، وهذا مُحَقَّق من الله تعالى باستدراجه إيّاهم بنعمه مع ما أعدَّ لهم من نقمة⁽³⁾. وذهب ابنُ عطيةٍ الى أنَّ الفعل الثَّانِي من الله مجازٌ، وأنَّ الأوَّل حقيقة⁽⁴⁾.

المكر على
الحقيقة التدبير
فيما يضرُّ
الخصم، وعلى
للمجاز العقوبة

الدَّلَالَةُ الْقَرَأَنِيَّةُ لِلْفِظَةِ (المَكْر):

المَكْر كما يظهر من عبارات القرآن: هو التَّدْبِير الذي يجتهد صاحبه في إخفائه عَمَّنْ يَمَكُر به؛ ولذا نُسِبَ المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل الله تعالى إلَّا خيرًا؛ ولذا ذَكَرَ المكر موصوفًا بالسُّوء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43]، فدلَّ هذا على أن مُطْلَقَ المكر لا يُعَدُّ سوءًا، فَمَكْرُ الفَجَّارِ لإِيذَاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيرًا، وَمَكْرُ الله تعالى لإِحْبَاطِ تدبير الأشرار لا يتصوَّر إلَّا أن يكون خيرًا⁽⁵⁾، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَكْرِ قُبْحٌ فَمَكْرُ

المَكْر على
إطلاقه لا
يُعدُّ سوءًا؛
فمكر الله خيرٌ
محضٌ، وصِفَةُ
عَدْلٍ وَكَمَالٍ

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: ص 257.

(2) د. قاسم، علوم البلاغة، ص: 218.

(3) الصَّعِيدِي، بَغْيَةُ الإيضاح: 3/467.

(4) ابن عطية، الْحَزَرُ الوجيز: 3/432، الرَّحِيلِيُّ، التَّفْسِيرُ للنير: 14/274.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفَاسِير: 3/1240.

اللَّهُ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَلَكَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تَجْعَلَ ﴿خَيْرٌ﴾ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ وَبِدُونِهِ⁽¹⁾.

أو المراد بِمَكْرِ اللَّهِ: عقوبته؛ وأُضِيفَ إِلَى اللَّهِ لَمَّا كَانَ عَقُوبَةُ الذَّنْبِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْعَقُوبَةَ عَلَى أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ بِاسْمِ الذَّنْبِ الَّذِي وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ⁽²⁾.

بلاغة اظهار اسم الله الأعظم:

أظهر لفظ الجلالة، وكرّره في قوله: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ولم يُضْمَرْ؛ لزيادة العظمة وتربية المهابة وتأکید المعنى، فلم يُقَلْ: وَمَكْرَ اللَّهِ وهو خَيْرُ الماكِرِينَ؛ لئلا يُفْهَم الإِضْمارُ خُصُوصًا مِنْ جِهَةٍ مَا، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ﴾ الَّذِي لَهُ هَذَا الْاسْمُ الشَّرِيفُ فَلَمْ يُشَارِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ بُوْجِهٍ⁽³⁾.

❖ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

المَكْرُ والكَيْدُ:

المَكْرُ: إِعْمَالُ الخَدِيعَةِ والاحتِيَالِ، فِي هَدْمِ بِنَاءٍ ظَاهِرٍ كَالدُّنْيَا، وَالْكَيْدُ إِعْمَالُ الخُدْعَةِ والاحتِيَالِ فِي هَدْمِ بِنَاءٍ بَاطِنٍ كَالْتَدْبِئِ والتَّخْلُقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَالْمَكْرُ خَدِيعَةٌ حَسَّ، وَالْكَيْدُ خَدِيعَةٌ مَعْنَى⁽⁴⁾، وَالْمَكْرُ مِثْلُ الْكَيْدِ فِي أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ تَدَبُّرٍ وَفِكْرٍ، إِلَّا أَنَّ الْكَيْدَ أَقْوَى مِنَ الْمَكْرِ، وَالشَّاهِدُ أَنَّهُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، وَالْمَكْرُ يَتَعَدَّى بِحَرْفٍ، فَيُقَالُ: كَادَهُ يَكِيدُهُ، وَمَكْرَ بِهِ، وَلَا يُقَالُ: مَكْرُهُ. وَالَّذِي يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ أَقْوَى⁽⁵⁾، وَهَذَا يَعْبُرُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 42] أَي: مَكْرُهُ يَنْقُضُ مَكْرَهُمْ وَيَمْنَعُهُ، وَكَيْدُهُ يَفْسَخُ كَيْدَهُمْ⁽⁶⁾.

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 3/256.

(2) السَّمِين، الذَّرِّ للصَّوْنِ: 5/393.

(3) البَقَاعِيُّ، نَظْمُ الذَّرْرِ: 4/418.

(4) البَقَاعِيُّ، نَظْمُ الذَّرْرِ: 4/419.

(5) الْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 259.

(6) اللَّاتَرِيدِيُّ، (تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ): 6/62.

وجه الإظهار
زيادة العظمة
وتربية المهابة
وتأكيد المعنى

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م.ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم،

قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغاني].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 5، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-57-6

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 5: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغاني، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-57-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»